

٣ - من ربوع الغرب

إلى بلاد العرب

للمستشرق المجري

الدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ بجامعة بودابست

وكنيت لا أزال منزوياً في مقدم الباخرة ، حينما أسفرت أضواء الفجر الشاحبة عن هذه البقاع الاسلامية المقدسة ، فاذا « بجدة » تسمو في السماء اللازوردية ، بينما تتراعى أمواج البحر على أقدامها ، تشقه عشرات البواخر والزوارق في حركة متواصلة ، بتساعد منها صخب داو اختلطت فيه كافة لغات الشرق ، فأعادت إلى ذهني المكثود بابل بأسواقها وشعوبها ، إلا أن المدينة الخالدة كانت تبدو فوق هذه الحياة اللاغطة ، كأنما نسمو خلوداً فوق مظاهر مدينتنا الحديثة الزائلة وقد برزت منها ما ذن في دقة الحراب وقباب كانت شاحبة البياض قبل أن يدنسها دخان بواخر الغرب فكانت ترسو في ظلها المراكب الشراعية حاملة طوائف المسلمين من الهند وجاوة وسومطرا والصين وشواطئ أفريقيا

واقترب الصباح فاستعد الركاب للنزول وبدأوا يستقلون الزوارق الخفيفة ، وكان النساء يرتدين تلك الملابس البيضاء ، سافرات الوجوه ، لا يجرؤ أحد على أن يتطلع اليهن بنظرة ، ومن ذا الذي في قلبه مرض فينظر اليهن في هذه الساعة الزهية نظرة اشتها ؟ وفي الواقع أن الجاذبية الجنسية كانت منعدمة تماماً ؟ وقد أبعد الحجاج عن خواطرهم شتى صور الحياة حتى لا يحول شيء بينهم وبين الوصول بقلوبهم إلى نور الله الواحد القهار وكان على الشاطئ حشد من الخالين والطوفين ومراقبي جوازات السفر وفريق من موظفي الحكومة لجباية الضرائب وهم جميعاً يتكلمون لغات شتى . فلما إن يهبط عليهم أحد الحجاج حتى يلتقطه الطوف ويقوده إلى الموظفين المختصين وبعد إتمام

الاجراءات الرسمية يصحبه إلى المسكن المعد لاقامته

وجاء دوري ، فلما شئت أمام مراقب الجوازات تطالع إلى وسألني عن جنسيتي فأجبته : من بلاد المجر ... عند ذلك أظهر ارتباكاً ، إذ لم يسبق له أن سمع قبل اليوم ببلادنا ؛ وأخيراً أسر إلى بأن مسائلتي من المسائل التي يبت الأمير فيها بنفسه . وأشار إلى أحد رجال الشرطة وأمره بأن يقودني إلى دار الأمير لأنه هو الذي ييده سلطة التصريح لي بالسفر إلى مكة . وكانت دار الأمير تبعد عن البناء مسافة لا تقل عن نصف ساعة سيراً على الأقدام . ولتبيت الأمر فمرت مع ذلك الشرطي نتجاذب أطراف الحديث في طرق معبدة ملساء ، غير أنه كان من سوء حظي ، أن أحد مسامير الخف الذي كنت أنتمله ، رز من موضعه ودخل في قدمي فأحدث لي ألماً شديداً ظل أثره أياماً طوالاً

وما إن انتهت مقابلي للأمير ، وقد استغرقت نحو ساعة ، حتى عدت إلى الباخرة ، وكنيت قد نسيت أنني تركت أمتعتي في الزورق البخاري ، ولقد كان أسنى لضياها عظيماً ، وكمن عنفت نفسي لوقوعي في مثل هذا الإهمال الذي كانت نتيجته ضياع الأمتعة بما فيها الكتب ، وكنت أقطع الأمل من العثور عليها ، ولكن الله سلم ، فإن النظام المحكم الذي يقوم به رجال الشرطة في الحكومة السعودية أتاح لي أن أعثر عليها بسهولة في إحدى قاعات الجمرك وعليها بطاقة بأسمى . وبعد ساعة قادني الطوف إلى دار الأستاذ محمد ناصيف الذي كنت أحمل إليه كتاب توصية ، وما كاد يتلوه حتى رحب بي على طريقة العرب في شوق وترحاب ، وغمرني بكل صنوف الكرم التي لن أنساها ؛ وتلك لعمري إحدى مفاخر الاسلام التي تتجلى عظمته في كل مناحي الحياة

والأستاذ محمد ناصيف فوق أنه من سرارة الحجاز رجل مثقف ثقافة عربية فاضحة ، وتضم دارة مكتبته زاخرة لا يكاد الانسان يرى مثيلاً في بعض الأقطار الأوربية أو الآسيوية ، وله رفاق يلتقون حوله كأسراب الطيور ، ليلتقطوا من حديثه الشهي الحكم البالغة والآيات اللبينات

تبعد جدة عن مكة بمسافة ٧٩ كيلو متراً ، وتشبه مبانها الاستحكامات العسكرية ، ودورها مرتفعة ارتفاعاً شاهقاً ، وهي

تتسرب الآن إلى خارج البلاد ، فلا عجب إذا نظر إليها البدو
شيء من الحق ونقموا على من كانوا سبياً في إدخال تلك «
الجهنمية» إلى الصحراء ، وهم يقولون إن الإنسان يجب
يركب في سبيل الحج أشق الأمور ، فلا يخال نفسه ذاهباً
سياحة هادئة ، ويتندرع بوسائل الراحة والرفاهية مما يلقاها
السيارة ؛ وبمقارنة الأبل بالسيارة ، نجد أن الأولى قوة أح
على الجوع والعطش ، بعكس السيارة التي تحتاج إلى تجديد أ
كل أربع ساعات ، والوقود كلما نفذ ، فضلاً عن جهل الس
بميكانيكيتها مما يسبب عطلها في الطريق وترك الحجاج في ال
إلى أن تقدم سيارة أخرى

أجل ! لقد أزعجت السيارة ذلك الهدوء الشامل في الصح
وأقضت مضاجع الأعراب وحولت طمأنينتهم إلى نوع
الثورة على الحضارة الأوربية وما تقدمه إليهم من كم
وطيارات ولاسلكي

دخلت سيارتنا مكة في منتصف الليل تقريباً فراعني أن أ
الناس في الشوارع ، يفتون في نومهم ويحملون بالجنة التي هم
موعودون ، لاسيما وأنهم أصبحوا على قاب قوسين منها . أه
هذا النظر خاطري فانبثق في نفسي شعور خفي وأنا أستقبل
الأرض المقدسة التي وطنها قدما الرسول وكانت خير من
للحق ، فهدت الناس إلى السبيل القويم

وقصدت لساعتي إلى دار مطوفي ، وهي دار رحبة عا
البنيان ، بها غرف في الدور الأسفل أعدت لاستقبال الحج
الجدد عند وصولهم إلى مكة . وبعد أن رحب بي المطوف سأ
عما إذا كنت في حاجة إلى طعام أو شراب فأجبتته بالنفي ،
كنت لا أزال غارقاً في نهار من الأحاسيس الخفية ، معا
النفس بقرب بزوغ النهار للطواف بالكعبة المقدسة

وما إن غشيت غرفتي واستلقيت على البساط حتى أغضب
عيني واستولى على النعاس ، فتجليات الرسول الكريم وقد
أمامي في شكل نوراني ، يكاد يخطف الأبصار ، وكأنما هو يند
كلية الله فيضيء بها العالم يدعو الخلق إلى كلمة الحق ، ورأي
الخلفاء الأربعة يتوسطون حلقات من الناس طبقاً لقواعد الد
الحنيف ، ويسودون العالم بالحكمة والمحبة لا بالعنف والشدة

مكونة من جلة أدوار ، بينما تتوج جدة قباب المساجد المقدسة ،
واسمة إياها بذلك الطابع الفريد الذي يميزها دون سائر مدن العالم
ومن الغريب أن قناصل الدول والوزراء المفوضين بقيعون
في جدة دون أن يتخطوها إلى داخل الأراضي المقدسة ؛
ويستحضر رجال الهيئة السياسية طعامهم من الخارج ، حتى الماء
يجلبونه من مصر ، لأن مياه جدة أجابية غير صالحة للشرب
وتستقبل أسواق جدة عادة زبائن من كافة بقاع العالم ،
ولا يفتأ تجارها يستحضرون أنواعاً من السلع لا تناسب بينها
مطلقاً ، بل هي خليط من أذواق مختلفة ومشارب متباينة

وبعد أن قضيت في ضيافة الأستاذ محمد ناصيف بضعة أيام
صدرت الأوامر بالسماح لنا بالسفر إلى مكة . والواقع أن الفترة
التي قضيتها في دار ذلك الشيخ الجليل دفعتني إلى الايمان الشديد
بأن الفوارق الجنسية لا أثر لها مطلقاً في الاسلام ، بعكس ما شاهده
في الحضارة الأوربية من الاشادة بالفوميات والعصبيات وغيرها
من المشكلات الاجتماعية التي تثيرها روح التعصب الأعشى .
وسادف أن رافقتني في السيارة إلى مكة خمسة عشر زنجياً من
أهالي الصومال ، وكنا في خلال الطريق لا نتقطع عن أن نهتف :
لبيك اللهم لبيك ! وهنا يجدر بي أن أنوه للمرة الثانية بعظمة
الاسلام التي تتجلى في عدم التفرقة بين الكبير والصغير والرئيس
والمرءوس ، فالكل سواسية ؛ وقد شمرت بتلك الحقيقة وأنا
بصحبة هؤلاء العبيد الفقراء ، وقارنت بين ذلك وبين الفروق
الشاسعة في أوربا الوجهة نحو احتقار العناصر الضعيفة والتفرقة
بين الألوان

كانت السيارة تنطلق بنا في طريق ممهدة لا يعلو النظر في
كل جزء من أجزائه ، طريق سلكه قبلنا ملوك وعظماء وأنبياء
منذ مئات السنين ، وكانت السيارة كلما مرت بقافلة من القوافل
نظر الأعراب إلى تلك الآلة الجهنمية التي تنبعث منها أصوات
منفرة وروائح كريهة ، في شيء من الحق والفيظ . فقد أصبح
النقل اليوم في أكثر طرق الحجاز بالسيارات تمشيًا مع مقتضيات
الحضارة الحديثة ، مع أن البدو كانوا يرحلون الشيء الكثير
من نقل الحجاج بالأبل ، وكانت النقود التي تدفع إليهم تبقى في
حوزتهم ، أما السيارة فإن ثمنها وأمان وقودها وقطع تغييرها

إن اللقاء على جبل عرفات هو الغرض الأساسي تقريباً للحج ،
فالْحِجَاج الذين يقدون إلى جدة متفرقين ، يهتممون كلهم في يوم
واحد ويمشرون في صعيد واحد ، وهنا تظهر عظمة الدين الخفيف
وحكمته ، فقد كان مجموع الحجاج فوق عرفات لا يقل عن
خمسین ألفاً ، مع أن مكة بمساحتها الشاسعة لا تستطیع أن تأوی
مثل هذا العدد الوافر

وجبل عرفات من أجل جبال العالم ، يصل الماء إليه من
« عين زبيدة » في أنابيب ، وهو عمل عظیم في ذاته ، لأنه يخفف
من متاعب الحجاج للحصول على الماء . وهناك تل يطلقون عليه
« جبل لرحمة » به مصلى كان النبي عليه الصلاة والسلام
يصلی فيه

ولقد رأيت الحرس الوهابي يقيم على تلك البقعة ليمنع الحجاج
من إقامة الصلاة بالقرب منها ، كما أنهم يحرمون على الحجاج
السجود أمام الممد الحجرية المسندة إليها

والوهابيون يعارضون أشد المعارضة في تدخين التبغ ، ولكنني
رأيت أن هذه العادة تكاد تنلثني ، وألفت كثيراً من الناس
يدخنون في الطرق العامة حتى في الجبل وبحوار المصلى ، كما أبطلوا
عادة الخطابة التي كانت تلقى على ظهر البعير

(يتبع) عبد الكريم برمانوس

ظهر كتاب :

توفيق الحكيم
محمد

ويطاب من : مكتبة الهلال بالقاهرة

ومكتبة النهضة بشارع المدايق بالقاهرة

بلجنة التأليف والترجمة والنشر

بشارع الكرداسي رقم ٩ بالقاهرة

وتمه ٢٥ قرشاً مصرياً عدا أجرة البريد

تم تخيلت هارون الرشيد وهو يجول آناء الليل في شوارع بغداد
يجوس في خلال أزقتها ودروبها ، فيكافئ الأتقياء وينزل
قوبته بالجرمين ، وانبسطت أمامي بلاد الأندلس الزاهرة وقد
بأدها حكم العرب ، فنشروا بين ربوعها العلم والحكمة والفلسفة
الفلك والفقه حتى أصبحت هذه العلوم كشجرة مباركة
رعها في السماء ، وأظلت بأوراقها اليانعة الخضراء نجاد مكة
للكرمة والكعبة الشريفة ؛ ولا يظن أحد أن ما شهدته كان من
أنيل الرؤيا أو أضغاث أحلام ، بل هي أشباح خالدة تطوف بذهن
كل مسلم صادق العقيدة متوجه إلى الله بقلب نقي طاهر

وعند انبثاق الفجر نهضنا من النوم على أصوات ملائكية ،
كانها هابطة من السماء ، تلك هي أصوات المؤذنين يدعون
المؤمنين إلى صلاة الفجر التي هي خير من النوم ، قممت
مهرولاً ، وبعد أن توضأت بعمت شطر المسجد الحرام وهي
مطوفاً ، وكنت أؤدي الصلاة المفروضة طبقاً لأرشاده ، ثم بدأت
أطوف بالكعبة فسرني أن رأيت الوفا من الحجاج ، من كافة
الألوان والأجناس ، يقبلون في لفحة على لثم الحجر الأسود ،
وهو رمز تاريخي للإسلام ، كان الرسول الكريم يتبرك به
ويقبله ؛ وتبعمه في ذلك الخلفاء الراشدون ، وغلت تلك العادة
متبعة للآن ؛ ولقد حاولت مراراً أن أقرب منه فكان يصدني
عن بلوغه كثرة الزحام ، وبعد مشقة لمست يدي سطحه الرمادي
الأملس ، ولكن ما كنت أئتمه حتى رأيت سيدة من أهالي
فرجانة تقع على الأرض إثر صدمات عنيفة من الخلف ، وكانت
تحمل على ظهرها طفلها المسكينة التي ستصبح حاجة بعد حين ،
ولقد قدمت هذه المرأة التنية إلى الحج معطوبة صهوة جواد مع
بقية أفراد أسرتها ، من بلدها في أواسط آسيا فاستغرق
سفرهم أربعة أشهر ؛ ولقد أخبرتني هذه الحاجة أنها كانت تدخر
لهذه الزيارة المقدسة من سنوات بعيدة ، وأخيراً حققت حلمها
وكانت مبتهجة أشد الابتهاج

وقت بعد ذلك للسمي بين الصفا والمروة ، وهناك نالني كثير
من المشقة والعناء ، فجلست بجوار حلاق أخذ يقص خصلة من
شعري البعثر عملاً بالسنة الشريفة ، ولبثت في انتظار مطوفاً
ليأخذني إلى جبل عرفات